لباس التقوى ذلك خير

تأليف:

السيّد محمد عزيز عبدالله زهيري

الإهداء

بسم الله الرحمن الرّحيم

إلى كلّ إنسانٍ يعمل على تحقيق إنسانيّته، ويسمو بعلاقاته إلى ما يتوافق والفطرة التي فطره الخالق عليها.

إلى كلِّ من يؤمن بأنَّ الإنسانيّة أعلا وأشرف من الحيوانيّة وإن شارك الإنسانُ الحيوانَ في كثيرٍ من المظاهر الفيزيولوجيّة وغيرها.

إلى كلّ من يؤمن بأنَّ الرجل والمرأة مظهران رائعان كاملان لحقيقةٍ واحدةٍ هي الإنسان. وأنَّ الإنسان المشروع الأكبر للخالق الدّيّان.

إلى كلِّ من يؤمن بأنَّ حقَّ(الفيتو) ليس حكراً على أحدٍ من البشر فرداً كان أو فئة أو دين أو حزب، بل هو حقُّ الكلِّ وفي كلِّ المستويات والأمور لرفعِ مظلمة أو إيقاف شرٍّ أو تجنُّب ضرر.

إلـى كـلِّ مـن يـؤمن بـأنَّ الإنسـان حـرٌّ مختـار. ويـؤمن بحريّـة الغيـر واختيـاره وبحدود انتهاء حريّته عندما تبدأُ حريّة الغير وفق قاعدة لا ضرَرَ ولا ضِرار.

إلى كلّ من يدين لله في معتقده وبأيّ تصوّر كان لله بأنَّ الأكرم عند الله من بني البشر هو الأتقى لله في سلوكه مع خلق الله.

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان حيوانٌ ناطق عجيب، سامٍ بفكره وعقله، متميَّز عن الموجودات بقدرته على الاختراع والإبداع، متحكّم بإرادته رغم ضعفه وهزاله، والحاكم المتمكِّن على كلِّ ما على البسيطة من كائنات بما يمتلكه من ذكاء وقدرةٍ على إيجاد الحيل ومظاهر الخدع. ومع صغر حجمه إذا ما قِيسَ بغيره من المخلوقات، ورغم كثرة تأثّره بالموجودات الحيّة وغيرها، ومع ما يحرزه من تفوّق على الكائنات وبمختلف أنواعها .. فالمِكروب الذي لا يُرَى بالعين المجرّدة يُميتُه أو يقلقه وينغّص عيشه ويفسد حكمه، وقد يبطل حركته ويوقف نشاطه. والبعوضة الضعيفة تُلزمه الفراش أياماً طويلة. والحَجرة الصَّلبة وغيرها مما تكثّف نسيجه، وغلظ عوده، يفقده الحياة، ويكون سبباً لتغيُّر حالة بدنه إلى حالةٍ أخرى تختلف عمّا كان عليه في النوع والجنس والشكل والصورة.

ومع كلّ هذا فهو وحده القادر على فهم ظروف الحياة وقوانين الطبيعة وعللها ومسبباتها، وقد يوصله بحثه واستنتاجاته لكشف الكثير من القوانين الّتي وجِدَت الأشياءُ من حوله وفقَها. فينظّم شؤونه وأمور أبناء جنسه بما يتوافق ومعلوماته واكتشافاته على مرّ الزمن. ومن أهمّ ما توصّل إليه اكتشاف قصوره في معرفة علّة العلل اندفاعه إلى الإذعان والاعتراف بوجود علّةٍ واحدةٍ

ومسبِّبٍ واحدٍ لهذه الموجودات الّتي لا تُعَدُّ ولا تحصى وقد رضي بما تسمّى الله وعلى أنَّ معناه أكبر وأعظم وأسمى، وأدرك بعد تعقُّلٍ وتدبُّر أنَّه لا يقبل أن يكون لهذا المسبّبِ من شيء يحيط به أو يدركه، أو يكون له مثيلاً أو شبيها ... فهو واجب الوجود الكامل الذي لا نقص فيه والعادل الذي لا ظلم عنده، والحكيم الذي لا خطأ لديه .

وحتّى أصبح من البديهي عنده أنَّ { أفكار الإنسان كانت ولا تزال تشكّل من البداية وإلى النّهاية مجموعةً واحدةً مترابطةً كترابط أفراد الأسرة الواحدة يُنتج بعضها بعضاً، ويتولّد بعضها من بعضٍ هكذا دائماً وأبداً أفكار الإنسان في حركةٍ وانتقالٍ من شخصٍ إلى شخصٍ ومن بلدٍ إلى بلدٍ، ومن أمّة إلى أمّة .. }. وهذا يدفع بنا إلى أن نعتقد أنّ المبادئ والأفكار الّتي يأتي بها الإنسان هي وليدة تجاربه واكتشافاته ومعارفه ومعطياته على مرّ الأيام وهي قابلةٌ للتّغيير. وأنّها إذا ما قيستْ بما يصدر عن الخالق الذي لا نقص ولا ظلم ولا خطأ عنده تكون هزيلة ناقصة ولا مناص للإنسان من التسليم لله ولكلِّ ما يصدر عنه .. وفي ضوء هذا جاء الإسلام الدّين الّذي ارتضاه ربُّ العزّة [إنّ الدّين عند الله الإسلام]. والذي قال فيه أمير المؤمنين مقولته المشهورة: ((لأنسبنَّ الإسلام نسبةً لم ينسبها أحدٌ قبلي، الإسلام هو التسليم، والتّسليم هو اليقين، واليقين هو التّصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل)) وقد طرح القرآن هذا المفهوم وأكَّد على أنَّ الإسلام هو دين كلِّ الأنبياء والمرسلين بما جاء على ألسنة معظم الأنبياء. فعلى لسان نوح(ع): [

إن أجري إلاَّ على الله وأُمرتُ أن أكون من المسلمين] وعلى لسان يوسف (ع): [أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين] وجاء قوله تعالى: [ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون].

التّعارف غاية الخلق

قال تعالى: [يا أيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم]. سورة الحجرات /13/.

في الآية الكريمة حقائق يريد الله سبحانه وتعالى أنْ ننوِّرَ قلوبنا بضيائها ونُنْعِش نفوسنا وأرواحنا بفحواها الطّيّب المنعش. منها حقيقة أنَّ الذكر والأنثى مخلوقات لله. وأنَّ الشّعوب والقبائل من سنّة الله في خلقه. وأنَّ الغاية من الخلق والجعل التعارف. وأنّ الأكرم والأفضل عنده من ينال منهم التّقوى في سلوكيّاته وتعاملاته. وما يفضّلُ الله البعض على الآخر إلاّ بما تحرزه من تقوى.

ومنَ النّظرة الأولى نجد أنّ شفافيّة هذه الآية وواقعيّتها تجعلنا ندرك أنّ سنّة الله في خلق البشريّة إيجادهم من ذكر وأنثى، ومن ثمّ توزيعهم جماعات وقبائل وأمما وشعوباً لغاية أن يعرف بعضهم بعضا. وفي ذلك تتحقّق معرفة الله وعبادته. قال تعالى: (وما خلقتُ الأنس والجنَّ إلاّ ليعبدون).

ومن البداهة أنّه لا تتمّ المعرفة إلاّ إذا التقى الواحد بالآخر وعاشره، واستمع إليه وتعامل معه، وعرف ما عنده من قناعات ومبادئ وعقائد، وبعدها معرفة مدى التزامه بقناعته التي يعتقد صحّتها... وإنّ معرفة القبائل أو الشّعوب لبعضها البعض تتمّ بنفس القوّة من خلال معرفة أفراد كلٍّ منها لأفراد القبائل والشّعوب الأخرى، وما تنهجه في حياتها سلماً وحرباً، اقتصاداً وسياسة، فكراً

وثقافة وما إلى ذلك. ولا شكّ أنّ من يعمل وفق مبادئه وعقائده هو الأكثر نجاحاً في الحياة، ويكون إنسانيّاً بقدر ما تكون مبادئه إنسانيّة. ومن يكون منهجه موافقاً لعقائده ومبادئه، وكانت عقائده ومبادئه مستقاة من التعاليم السّماويّة وكان ملتزماً بأوامر الله ومجتنباً لنواهيه فإنّه ممن يحقّق إنسانيته ويكون الأفضل عند الله. قال تعالى: [إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم]. ومن هذه الرؤيا، ومن هذه الزاوية للنّظر في الآية الكريمة نتلمّس مدى أهمّية لقاء الرجل بالمرآة ومعرفة كلٍّ منهما للآخر ومن مختلف جوانب الحياة .. وبذلك تسقط كلّ الأوراق المرفوعة في وجههما والتي تحدّ من معرفة كلٍّ منهما للآخر أو تقلّل من شأنه لاعتبارات مَرَضيّة تصيب المجتمع أو الأفراد تماشياً مع مبدأ سدّ الذرائع المعتمد في سنّ تلك التشريعات التي سنّوها في حجاب المرأة بالشّكل الذي يحدّ من حرّيتها، وإلغاء ما منحها الله من حقّ المعرفة التي أشارت إليها الآية الكريمة [لتعارفوا] .. ولو توقّفوا عند بعض المظاهر والشكليَّات الثّانويّة التي يمكن تجاوز أضرارها بالعلم والوعي لكان الأمر يدعو إلى التّسامح والتّسليم، ولكنَّهم وصلوا في تشدُّدِهم في تشريعاتهم إلى حرمة الاستماع إلى صوت الأجنبي عليها أو النّظر إلى محاسنها، ومن ثمّ حرمة عملها خارج المنزل، أو الاختلاط بالرجال، سواء في العبادات أو غيرها من المعاملات التي من الضروري وجودها ليتحقّق للمجتمع البشري الحياة الأفضل والتي تستوجب المسؤوليّة والتكليف. ولا شكَّ في أنَّ التّكاليف واحدة وأنَّ المسؤوليّة للمرأة والرجل سواء.

ومع هذا فالرجل في وجهة نظرهم له أن يعطيَ لنفسه الحقّ وفي كلّ ما قد حرّمه على الأنثى بذريعة أنّه الأفضل، وهو بذلك عن قصد أو من دون قصد يخالفون نصّ القرآن الكريم [إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم]. وأخرى بذريعة أنّه الأقوى تمشّياً مع شريعة الغاب المرفوضة لدى البشريّة لتميُّز الإنسان عن الحيوان بما كرّمه الله به من العقل وتفضيله على باقي الكائنات باستخلافه على ما في الأرض والسّماء. قال تعالى: [ولقد كرّمنا ابن آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا] الإسراء "70 " وقال تعالى: [آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه] الحديد "7".

تفضيل الإنسان ذكراً أو أنثى وتكريمه

الإنسان حيوان، وكلّ طبعٍ للحيوان موجود فيه بالقوّة أو بالفعل، وجميع الصّفات الحيوانية الفيزيولوجية ظاهرة فيه وبادية عليه. فهو يأكل ويشرب وينام ويتحرّك ويتوالد ويموت ويملك الحرارة واليبوسة والرطوبة ... الخ .. وهذا بدهيّ وواضح. إلاّ أنّه قد فُضِّل وميّز وكُرّم عن جميع الحيوانات بما منحه الله من عقل قدر به على التفكير والتّدبّر بالأشياء ومعرفتها وتمييز الضّار منها والمفيد، والتّكلّم والتّعبير عما يجول بخاطره من الأشياء والّتي بها هيّأه الله ليكون خليفة له، وسخّر له ما في السّماوات والأرض ؛ لتكون العامل المساعد والأهمّ لما فيها من خدمة له ولصالح بقائه واستمراره ودوام الحياة بتوازن عجيب لا مثيل له. حيث أوجد كلَّ شيء بقدر معلوم ولغاية تحقّق المراد بإذن القادر الحكيم ... وقد عُنِيَ بالإنسان الذكر والأنثى وبما فضّل الله به بعضهم عن بعض في المهام وفي ما رزق الله البعض من الصّحة، والرّزق، والجاه، وبما مُتِّع به البعض من متع الحياة الدّنيا .. فهو سبحانه القابض الباسط وبيده تدبير الأمور يرزق من يشاء بغير حساب. وقد جعل سبحانه الخلافة على الأرض للإنسان ودلّه على ما يجب العلم به والعمل ليكون استخلافه موفّقاً فيه، وأنزل الرسل إليه مبشّرين ومنذرين، وقاموا بتشريع ما يلزم الإنسان لتحقيق إنسانيّته بما يضمن له السّعادة والحياة الفضلى، وكانوا الأسوة فيما أعطوه من تجارب عاشوها مع بني البشر وعلى مرّ الأزمنة واختلاف العصور والمعطيات وكان كلٌّ منهم المثال والقدوة. وها هو رسول الإنسانيّة محمّد (ص) يحصر سبب بعثته لإتمامِ مكارم الأخلاق حيث قال: (ص): (إنّما

بعثتُ لأتمِّمَ مكارم الأخلاق) وقد امتدحه الله بقوله جلّ شأنه: (وإنّك لعلى خلقٍ عظيم). وفي رسالته تذكيرٌ للنّاس بما سار عليه الأنبياء السّابقون وما مارسوه في تشريعهم لبني البشر أيّام بعثتهم وما عانوه من الأشرار الذين جحدوا الله وأنكروا وجوده وأرادوا لأنفسهم الخلافة المطلقة فحاربوا الأنبياء وجاهروا بعدائهم واتّبعوا أبشع الأساليب للقضاء على من كانوا من أنصار الرسل، وما تركوا من وسيلة إلاّ واتّبعوها مناقضين ما يقوم به الأنبياء والرسل من دعوة النّاس إلى ما يوصل بهم إلى ما يرضي الخالق العظيم.

اللباس ظاهرة وضرورة

لقد شُغِلَ الإنسان ومنذ آدم وحوّاء بضرورةٍ ظاهرةِ الأهميّةٍ في وقايته من الأذى والضرر حيث ابتُليا في جنان الخلد بالأكل من الشجرة قال سبحانه وتعالى: [فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة]. وفي آية أخرى: [فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة]. حيث يتبادر إلى الذهن ما أن بدت سوءاتهما حتى هرعا إلى ورق الجنّة ليستفيدا منه فيما يحقِّق لهما الأمن والسَّلامة من الأذى. ولا ريب أنَّ الخوف الذي لحق بهما على ما أرى ليس من جرّاء تواجدهما مع بعضهما، ولا من خوف أحدهما من الآخر، بل ممّا هو يحيط بهما وخارج عن إرادتهما، ألا وهو الشّيطان وقبيله حيثُ قال تعالى: (إنّه يراكم هو وقبيله من حيثُ لا ترونهم إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون) الأعراف /26/. ومن المؤكد أنهما قد تعاونا في مواجهة الظروف التي وُضِعَا بها، ومن ثمَّ علَّما نسلهما ما قد وصلا إليه من خبرتهما وممّا تعلّماه ممّا أنزل عليهما من خالقِهما وخالق كلّ شيء قال تعالى: [يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خيرٌ ذلك من آيات الله لعلكم تذكّرون]. فسبحانه وتعالى يمنُّ على بني آدم بأنْ علَّمهم ما يوارون به سوءاتهم، وله وحده المنَّة لنعَمِهِ التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وفي مقدمة النّعم نعمة الوجود، ومن ثمَّ الهداية. وها هو عزّ شأنه بعد أن أنزل على بني آدم اللباس الذي يواري سوءته، بيَّن له أنّ لباس التقوى خير وأفضل وأهم. وأنَّ على الإنسان أن يسعى أكثر ويجدّ ويجتهد ويجاهد نفسه ليضمن

هذا اللباس لباس التّقوى. وقد اتفق المفسرون على أن المراد بلباس التقوى هو خشية الله، وإنْ قال البعض بأنّ المراد به الإيمان الصَّالح أو العمل الصّالح.

ولا ريب في أنَّ حصول الخشية لله، والشعور بمراقبتهِ له في كل عمل يعملهُ أو تصرّفٍ يتصرَّفهُ أو قول يتلفَّظ به؛ لَهُوَ من خير ما يلبسه الإنسان ليلقى ربّه .. لا بل به يصبح الإنسان ذي ملكةٍ للعمل الصَّالح فلا يعمل إلاَّ بما أمر الله، ويتجنَّب كلَّ ما نهى الله عنه سواء بعلاقتهِ مع الجنس وغيرهِ وسواء كان الإنسان رجلاً أو امرأة .. فالرَّجل والمرأة إن أدركا لباس التقوى، و حقّقا خشية الله فلن يكون للشيطان عليهما من سبيل.

نعم إنّ الشّيطان قد توعّدهم بقوله: (ولأغوينَّهم أجمعين إلاَّ عبادك المخلصين) الحجر /39-40/ إلاَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى قال: (إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاَّ من اتّبعك من الغاوين) سورة الحجر /42/.

وإن نجح الشيطان مرَّة مع آدم و حواء فإنَّه ما نجح في غوايتهما بعد أن هبطا الأرض. وقد تعرَّض لهما في منى وقاما برجمهِ مظهرين مدى خشيتهما لله و معرفتهما بحقائق الأُمور.. وصار أنْ سنَّ ربُّ العالمين رجم الشيطان لكلِّ من يقوم بمناسك حجِّ بيت الله. وفرض على بني آدم السعي والعمل على تحقيق خشية الله والشعور بمراقبته.. وعندها يخسأُ الشيطان ويرتدُّ مدحوراً مذموماً وهذا ما تضمنته الآية الكريمة: [يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما] الأعراف(27) وأشار إليه قوله تعالى: [قال ربّي بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض

ولأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراطٌ عليّ مستقيم إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك من الغاوين] الحجر (39_42).
ومن خلال التمعّن بالآيات الكريمة التي تناولت مواراة السّوءة، يصعب على الإنسان أن يفهم أنّ المراد بالسّوءة رأس ابن أدم التي وضع الله بها العقل ليسيّر به و من خلالها جميع جوارح الإنسان ويقوم بإرشادها إلى حمايتها والمحافظة عليها إذ بوجودها يتأكّد وجوده، وبدونها لا وجود له.. ولاشكّ في أنّ الإنسان استفاد من خبرة الماضين وتجربة السّلف كلٌّ حسب موقعه وموطنه، وقدرته فيما يحفظ لجسده الصحة والسلامة .. وأنّ الأنبياء والرسل ساروا مع العرف الموجود في اللّباس، وإن خالفوا بذلك ما كان يظهر به المترفون إذ لبسوا لباس أبسط النّاس وأقّلهم مالاً .. وقد ورد في ذلك الكثير مما أظهر بساطة الأنبياء في لباسهم، ومشاركة الفقراء حياتهم وعاداتهم. فالنبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلّم كان يجلس على الأرض ويفترشها وكم كانت الأرض والبسط تترك آثارها على جسده الشّريف.

لباس المرأة والرجل

نعم قد تكون المرأة في اختيارها اللباس الذي يقيها الشّر والأذى قد غايرت الرجل في لباسه بنمط من الأنماط، وبما يسهّل لها القيام بالمهام الملقاة على عاتقها في المنزل، وتربية الأطفال، وإرضاءً للرجل شريكها في الحياة وحسب القدرة والاستطاعة.. وقد يكون الرّجل قد غاير الآخرين في اختياره اللّباس الذي يساعده في القيام بما عليه اتجاه نفسه وعائلته وحسب الموطن الذي يعيش فيه، فمن كان منهم في الجبال يحتاج إلى مالا يحتاجه من يقطن السّهول والوديان، أو الصحارى أو البحار. ومن كان في منطقةٍ حارةٍ يختلف لباسه عمّن يكون في الباردة أو المعتدلة.. وأنّ لباس من يعمل بالزراعة يخالف من يعمل بالجيش مثلاً أو غيره.. وكم تغيّر شكل اللّباس للرجل والمرأة على مرّ الأزمنة وحسب معطيات الحياة، ووفق ما يتيسّر لهما أو يضمن لهما السلامة والاحترام ممن يعيشا معه.

وفي ضوء هذا جاءت تعاليم السماء للإنسان ومنذ آدم وحوّاء فما أن بدت لهما سوءاتهما حتى طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة، مروراً بما أنزل الله على بني آدم من لباسٍ يواري سوءاتهم وإرشادهم إلى الأهمّ من اللّباس والذي أسماه ربُّ العالمين بلباس التقوى والمجمع على تفسيره بالإيمان وخشية الله، والعمل الصالح، قال تعالى: [يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلكم تذكّرون]. و يسير الأنبياء والرسل والصالحون في تقوى الله بلباسهم، أمّا ما يواري السوءة أو الجسد فقد تنوّع شكلاً، وكيفيةً، ولوناً، وحسب معطيات الحياة في كلّ زمان وبما ينسجم

مع المكان وبمراعاتٍ للظروف الطبيعية والمناخية وحسب القدرة والاستطاعة..
وكم تفنّن الإنسان في لباسه في الشّكل والنّوعيّة، وحتّى أيّام بعثة رسول الإنسانية المنزل رحمةً للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم وبعده..
وكم عانى روحي له الفدى من قريش والكافرين وكم لاقى من أذاهم وعنادهم.
ومن صلف المشركين والمنافقين. وكم عمل هؤلاء على إيقاع الأذى به وبمن اتبعه من المؤمنين والمؤمنات. فقد لاحقوا أتباعه وأنصاره، وكادوا لهم وتفنّنوا بتعذيبهم وأوجدوا وسائل عجيبة للتنكيل بهم، وحتى مات من مات تحت التعذيب، ونجا من نجا بمشيئة الله ليكون في ذلك الدليل على إجرام المشركين، وإدانتهم على مرّ الأيام والسنين.. وينزل الوحي على قلب النبي الكريم ليرشد النّساء المؤمنات من نساء النّبيّ ونساء المؤمنين كي يحافظن على أنفسهنّ من أذى المشركين، وكي لا يُعْرفْنَ أَمَرهنّ بلباس الجلباب الذي كان يلبس وقتها من قبل نساء قريش، فيبعدنَ بذلك الأذى عنهنّ إذ لا يمكن تميزهنّ عن نساء المشركين، وهذا يُبْعِدُ ما يحاوله البعض من بيان أنّ الجلباب لباس إسلاميّ متميّز؛ لأنّه إن كان كما يدّعون تنتفي الحكمة من قوله تعالى [ذلك أدنى أن يُعرَفن فلا يُؤذَين]؛ إذ يُصبحنَ بذلك هدفاً معروفاً وواضحاً لأولئك الكافرين والمنافقين.

وإنّ إنذار الوحي للمنافقين والّذين في قلوبهم مرض والمرجفون من المدينة إنْ لم ينتهوا وبقوا على إيذائهم للمؤمنين والمؤمنات ليأمرنّ النبيّ والمؤمنين بقتالهم وجلائهم وإبعادهم عن جيرته. وفي هذا دليل إلى ما نشير إليه. قال تعالى: [

لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثمّ لا يجاورنك فيها إلاّ قليلا]. وعليه فقد أصبح أذى المنافقين ومن في قلوبهم مرض للمؤمنات أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم هو السبب أو العلّة للأمر بلباس الجلباب، وأنّه سبحانه قد حذّر أولئك المتقصّدين أذيّة المؤمنين والمؤمنات باحتمال البهتان والإثم، قال تعالى: [والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا]. وفي هذا وضوح في شجب أولئك الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات من دون ذنب يوجب إيذاءهم. وفي ضوء هذا جاء قوله سبحانه: [يا أيّها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً] . فلولا الأذى الذي يمكن أن يصيب المؤمنات من المنافقين والمشركين وَمِن مَنْ في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة؛ لمَا أُمِرْنَ بذلك. ورفعُ الأذى والضّرر واجبٌ وبكلّ السّبل المشروعة وغيرها. . فكيف يكون الأمر فيما إذا وقع الأذى من قبل من يدّعي الإيمان أو الإسلام، بحجّة عدم القدرة على كبح جماح النّفس عند رؤياه للمرأة، أو بعض جسمها، أو شعرها، أو عند مجالستها والتّحدّث إليها، وهو ممّن أُمِرَ بمغالبة النّفس ومجاهدتها وقهرها. وقد أنزل الله المجاهد للنّفس منزلة عالية، ومنحه أعظم الدّرجات. قال رسول الله (ص): ((أفضل الجهاد من جاهد نفسه الّتي بين جنبيه)) وقال (ص): ((جاهدوا أنفسكم عن شهواتكم تحلّ في قلوبكم الحكمة)). وقال الإمام عليّ عليه السّلام: (إنّ المجاهد نفسه في طاعة الله وعن

معاصيه عند الله بمنزلة شهيد). وقال الإمام الباقر عليه السّلام وهو يوصي جابر بن يزيد الجعفيّ: (إنّ المؤمن معنيّ بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها ..).

فالمسلم إنْ استطاع مغالبة نفسه ومجاهدتها عن معاصيه، كان بحقّ جديراً بالتقدير والاحترام. وإن لم يستطع أن يتمالك نفسه ولم يقدر على غلبها وقهرها ووصل به الأمر إلى استحالة دفعها عن ملاحقة المرأة فيما إذا رآها وإلى إيذائها عند الخلوّ بها؛ فإنّ لبس الجلباب لا يفيدها ولن يردعه تغطية كامل الجسد كما هو العرف عند عامة المسلمين، فإن وجد مثل هذا في المجتمع فرداً كان أو مجموعة فلا بدّ من حجره، أو حجر النساء كي لا يتمّ بين مثل هذا الرجل وأيّ أنثى لقاء. ولا أدري كيف نفسّر أنّ المسلم وحده غير القادر على كبح جماح نفسه عن ارتكاب المعصية، أو أذيّة المرأة فيما إذا التقى بها بينما غيره من الرجال ومن مختلف الأديان الأخرى يقدرون على كبح جماح أنفسهم عند رؤية النّساء شبه عاريات، ولا يَقبل لنفسه مجرّد التفكير في أن يرتكب المعصية، أو يوقع بهنّ الأذى .. وفي منظاري أنّ كلّ رجلٍ لا يقدر على مجاهدة نفسه، وقهرها فيما إذا رأى المرأة أو عند استماعه لحديثها أو لمجرّد مشاركته إيّاها في العمل أو لم يكن الأمر معه كما هو الحال مع المحرّمات عليه، وينطبق هذا على المرأة أيضاً إن لم تقدر على مجاهدة نفسها وقهرها فيما إذا رأت الرجل فإنّهما لن يكونا ممّن دخل الإيمان قلبهما وينطبق

عليهما قوله تعالى: [قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم].

حادثة معاصرة

وللتاريخ دهشتُ جدّاً لدى سماعيَ حادثة جرتْ في إحدى ثانويات القطر. مجرياتها أنّ مدرّبة الفتوّة كانت تقوم بتدريب فتيات الحلقة الثانوية في ثانوية للبنات، وقد طلبتْ من إحدى الفتيات نزع ما تضعه على رأسها ولمصلحتها أثناء التدريب، فرفضت الطالبة نزعه، وحاولتْ المدرّبة معها لتعرف إن كان هناك من سببٍ مرضيّ، وكان الجواب أن لا سببَ صحيّ عندها، وأصرّتْ المدرّبة معرفة السبب، فقالت الطالبة بعد اللّتي واللّتْيا: أنّ والدها قال لها: إنْ نزعتْهُ عن رأسها تكون زانية. فما استطاعت المدرّبة تمالك نفسها إذ اعتبرت كلام الفتاة عن أبيها موجّهٌ إليها وأمثالها؛ فاندفعتْ نحو الفتاة وأخذتْ بما على رأسها ونزعتْه وهي تقول: إنّ الدَّرس نظام منضمّ وإنّ جميع الموجودات في الدرس فتيات، وضمن الحرم المدرسي يطبَّق القانون على الجميع. وينتقل الخبر إلى أهل الطالبة، وتحضر أمّ الفتاة ومعها مجموعة من النساء إلى المدرسة ويقمن بتهديد المدرّبة ومن ثمّ يصل الأمر إلى الرجال من أقرباء الفتاة وتقوم قائمتهم إذ جعلوا من الحكاية جرماً كبيراً وعاراً يصعب غسله. وبعد التحقيق تبيّن أنّ وراء الأمر خطباء الجمعة الذين تناولوا في خطبهم الحجاب الشّرعيّ حسب فهمهم لما ورد في الكتاب والسنة، ومن ثمّ ما تناقلته وسائل الإعلام من قرارات حكومة الطالباني في افغانستان من حرمان المرأة التعليم، والعمل خارج البيت، ومن ثمّ ما تناقلته الإذاعة ووسائل الإعلام اللبنانية في لقاءٍ قد تمّ مع مرشدٍ للإخوان المسلمين في مصر. وقد تأثّرتُ لما جرى، وحزّ في نفسي أن يكون من يتزعّم حركة إسلاميّة ونحن على أبواب

القرن الحادي والعشرين أن يكون هناك من علماء الإسلام منْ لا يدرك من الإسلام، ولا يرى الإسلام إلاّ من خلال الحجاب، فبوجوده يوجد الدّين والإيمان والجنّة . حسبَ تعبيره . ومن دونه لا دين ولا إيمان ولا جنّة.. وإن أنسى فلن أنسى قول من حضر مجلسي: (نحن المسلمين أصبحنا في أواخرالقرن العشرين وكلّ همّنا قطعة قماش توضع على الرأس وما استطعنا نزعها). ومتابعة قوله بذكر حادثة قصّها عليه محام صديق له، حيث أنّ رجلاً قد أتاه في قضيّة جنائيّة ارتكب الجاني فيها جرم الفعل مع ابنته – والعياذ بالله – وأراد تخفيف الحكم عليه وهو النّادم التائب، وبعد الأخذ والعطاء قال المحامي له: لا يخفّف الحكم عنك إلاّ إذا أثبتنا للادعاء بأنّك كنتَ شارباً للخمر، فانتفض الرجل غضباً واستنكر على المحامي جرأته عليه، ومن ثمّ قبوله أن يصفه بشارب الحرام . . ..

بربّك أخي المؤمن أليس في ذلك ما يبكي ويحزن. وليكن في علمك أخي المسلم أنّ الدين غير متوقّفٍ على حجاب المرأة، وأنّ الجنّة والنّار غير مربوطتين برباط ما يوضع على رأس المرأة، أو على جسدها. بل الدّين المعاملة، كما قال رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله وسلّم، وأنّ الجنّة والنّار قد وعد الله بهما مخلوقاته على أنّ من يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره. ومع هذا تعالى معي أيّها القارئ المسلم الكريم لنتصفّح القرآن الكريم ولنتوقّف عند بعض ما يذكره عن علاقة الرّجال بالنّساء، ولنرى إن كان هناك وهو يحدّثنا عن الأمم السابقة، وفي زمن الأنبياء

والمرسلين من ذكرٍ أو تعريض لحجر النّساء، أو حجزهنّ، أو إبعادهنّ عن اللقاء بالرجال، أو مجالستهنّ، أو مشاركتهنّ في العمل، أو منعهنّ عن محادثتهم.. ولنبدأ منذ وجود الإنسان مع آدم وحوّاء.

لباس آدم وحوّاء

لا ريبَ أنَّ أبانا آدم وأمّنا حوّاء قد عاشا معاً وسكنا الجنَّة لقوله تعالى (يا آدم اسكن أنتَ وزوجك الجنّة). وأنَّ الشّيطان كان السّبب في إخراجهما منها وهبوطهما إلى الأرض على ما تخبر به جميع الكتبِ المقدَّسة. وصارت الأرض منذ هبوطهما عليها المستقر والمتاع لهما، قال جلّ وعلا: (قلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين). وعلى لسان يعقوب (ع): (إنَّ الشّيطان للإنسان عدوّ مبين). وقال تعالى: (ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة وأقلْ لكما إنّ الشّيطان لكما عدوٌّ مبين).

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ أبانا آدم وأريد به الجنس الذكر والأنثى قد تلقّى من ربّه كلمات فتاب عليه قال تعالى: (فتلقَّى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرّحيم) البقرة /37/. وكانت مشيئة الله أن يبقى الشّيطان الخصم والعدوّ لله ولآدم (ع) ولا اعتراض على مشيئته. وأن تكون الدّار الدنيا لبني آدم دار فتنة وابتلاء واختبار. قال تعالى: (أحسبَ النَّاس أن يُترَكوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتَنون ولقد فَتنَّا الذين من قبلهم فَليعلَمنَّ الله الذين صدقوا ولَيعلَمنَّ الكاذبين). وقال سبحانه: (لنبلوهم أيّهم أحسن عملا) الكهف /7/. وجاء في سورة محمد قوله: (ولبنلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين ونبلو أخباركم). سورة محمد /31/.

لقد عرفنا ممّا ذكرناه سابقاً، أنّه سبحانه ما أن ابتلى آدم وحوّاء برؤية سوءتهما حتّى طفقا يخصفان من ورق الجنّة، وقاما بستر كلٍّ لسوءته (عورته) وكان ذلك أوّل لباسٍ شرّع لآدم الجنس كي يقيَ نفسه من أذى ما يحيط به، ويتّقي

به شرّ الشّيطان الذي هو عدوّهما، وبذلك تميّز الإنسان عن بقيّة الحيوانات. وصارت السنّة لبني آدم ستر العورة منذ ذلك الوقت. وقد جاء خطاب الله لبني آدم ليؤكّد إلى جانب ذلك على لباس التقوى، قال تعالى: (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوري سوءاتكم وريشاً ولباس التّقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلّهم يَذَّكَّرون) الأعراف /26/. ولباس التّقوى هو الإيمان وخشية الله، والعمل الصالح على ما أورده جميع المفسّرين.

وممّا تفيد الإشارة إليه أنّه ليس في الأيات الكريمة التي ذكرناها عن سوءة آدم وحوّاء ما يشير أو يمكن أن يُفهَم منه اعتبار المرأة كلّها سوءة (عورة) ولا بدّ من تغطيتها، بل هناك نصٌّ واضح وصريح بأنّ كلاًّ من آدم وحواء قد هرعا معاً إلى ورق الجنّة ليوارياً سوءاتهما، وأنّ الله قد أنزل لباس التقوى ليواريا معاً سوءاتهما واعتبر ذلك خيرٌ ممّا قاما به ستر العورة من أوراق الجنّة ومن الرّيش. ولا يخفى على ذوي البصيرة خطورة وأهميّة ما أشار إليه سبحانه. كما أنَّه لا يخفى على أحدٍ أنَّ ابن آدم منذ ذلك الحين وهو ينوّع من لباسه الذي يستر به جسمه وبحيث يبعد عن نفسه ألأذى والضّرر، ونصب أعين المؤمنين منهم أنّ لباس التّقوى ذلك خير.

قصّة يوسف وامرأة العزيز

ولنتوقّف مع يوسف الصدّيق عليه السلام الذي ابتلي بحبِّ امرأة العزيز له، والذي كان يعمل في بيتها، حيث راودته عن نفسه، وغلّقت الأبواب. فكان

يوسف ممّن لبس لباس التقوى حيث قال: معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي. وهداه الله، وصرف عنه السوء والفحشاء.. وإنْ استبقا الباب، وأمسكت بقميصه تشدّه وإلى أن شُقَّ، ووجدا سيّدها لدى الباب، واتّهمت يوسف بالسّوء، ودافع يوسف عن نفسه: إنّها راودتني عن نفسي؛ ويحضر شاهد من أهلها، ويفتي: إنْ كان قميصه قَدْ قُدَّ من قُبلٍ فهي صادقةٌ، وإنْ كان قَد قُدَّ من دبرٍ فكذبت وهو من الصّادقين... وتُنبّئنا القصّة أنّ خبر يوسف مع امرأة العزيز انتشر في المدينة، وأنّ امرأة العزيز قد علمت بمكر نسوة المدينة؛ فدعتهنّ بعد أنْ اعتدّتْ لهنّ متّكأً، وأعطتْ كلَّ واحدةٍ منهنّ سكيناً، ثمَّ أمرت يوسف أنْ يدخل إليهنّ، وما أنْ رأينه حتّى أكبرنَهُ وجرحنَ أيديهنّ [وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلاّ ملك كريم] فقالت لهنّ معترفةً بمراودتها عن نفسه، واستعصامه، ولئن لم يفعل، ليُسجننّ، ويرضى يوسف بالسجنِ، وتمرُّ الأيام والشهور، ويرى الملك رؤيا، ويطلب من الملأِ تأويلها . . ويصل الخبر إلى يوسف وهو في السجن، ويقوم بتأويل هذه الرؤيا، ويطلبه الملك، ويستخلصه لنفسه، بعد أن ينكشف خطبُ النسوة، وتعترف امرأة العزيز [قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقُّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصّادقين ذلك ليعلم أنّي لم أخنْهُ بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفورٌ رحيم]. فقد أظهرت القصّة أنّ يوسف عليه السّلام كان يعمل في بيت امرأة العزيز وأنّها كانت تراه وتحادثه، ويراها ويسمع قولها، وقد أمسكت به، وكلُّ هذا من الأمور الطبيعيّة التي يمكن أن تجري في أيّ بيئة

يختلط بها الرجال والنساء، ولا يعيب هذا الرجل أو المرأة، إنّما ما يعيب هو ارتكاب السوء والفحشاء.. . وقد أثبتتِ القصّة أنّ للرجل أثراً كبيراً على النساء وبعكس ما يصوّره النّاس من تأثير المرأة على الرجال، والذي يُعتبر الأساس في مطالبتهم بحجاب المرأة وتغطية كامل جسدها، ومنعها من مخالطة أو مجالسة الرجال، أو العمل خارج المنزل، وما شابه ذلك مما حرموها منه وأباحوه لأنفسهم. وبحجّة عدم قدرتهم على ضبط أنفسهم ألزموها بما لم يلزموا أنفسهم به. مع إقرارهم بأنّ ربّ العزّة قد ساواهما بالتكليف والمسؤولية، وأنّ الشرع قد طالب المرأة والرجل بمجاهدة النّفس ومُغالبتِها. وإن اعتمدنا ما اعتمده هؤلاء نجد أنّ للمرأة الحقّ في أن تطالب الرجال بالحجاب بحجّة عدم قدرتهنّ على ضبط أنفسهنّ عند رؤيتهنّ الرجال أو مجالستهنّ، أو محادثتهنّ لهم وفي قصّة يوسف وفي غيرها ممّا أورده القرآن الكريم ما يعطيهنّ الدليل على ما يذهبنَ. . وهذا ما يرفضه الرّجال كلّ الرجال لأنّه يعيقهم عند القيام بمهامهم التي هي على عاتقهم تجاه أنفسهم والأهل والوطن. . ولا أدري لما لا يعطون المرأة الحقّ نفسه في رفض ما رفضوه إن كان ذلك ممّا يعيقها عند القيام بالمهامّ التي هي على عاتقها تجاه نفسها والأهل والوطن.

المرأة أيّام نبيّ الله شعيب (ع)

لنمعن النّظر في قصّة موسى عليه السّلام عندما توجّه تلقاء مدين، نجد أنّ المرأة أيّام نبيّ الله شعيب عليه السّلام وفي قانونه ومبدئه وتشريعه قد سمح لها أن تشارك الرجال أعمالهم، وأن تقوم بمهمّة الرّعي وهو من أقسى ما يقوم به

الرجل، حيث يخرج الراعي إلى المرعى يواجه الظروف المناخيّة القاسية برداً وحرّاً، ووحوش البراري، ومواجهة الغزاة. . وما من استنكار لعملها هذا. إذ نجد سيدنا موسى عليه السّلام قد مرّ بأمّةٍ أي رجال ونساء من النّاس يسقون، ووجد امرأتين في معزل عنهم تعملان على منع غنمهما من الماء لئلاّ يزاحمن الرّعاة الآخرين، وما أن أدرك حالهما، وعرف حاجتهما إلى من يسقي لهما، حيث أنّ أباهما شيخٌ كبير؛ حتّى سقى لهما. ثمّ أوى إلى الظلّ وناجى ربّه قائلاً: [ربِّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير] ويمضي الوقت سريعاً على موسى، وتأتي إحداهنّ على استحياء جميلٍ عفيفٍ لتقول له: [إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا] ويلبّي الدّعوة، ويخبر أباهما أمره وقصّته، ويلقى عنده البلسم الشافي لقلقه وخوفه [لا تخف نجوت من القوم الظالمين].

قكيف نظرتَ إلى قصّة موسى وابنتي شعيب تجد أنّ من المتعارف عليه والمشروع عند نبيّ الله شعيب وموسى عليهما السّلام أموراً عديدة، منها: أنّ ابنتي النبي شعيب عليه السّلام كانتا تعملان خارج المنزل رعياً وسقياً وعملهما هذا من الأعمال التي تعتبر من أقسى الأعمال حتى على أشدّ الرجال. وأنّهما قد كلمتا النبي موسى عليه السلام وهو أجنبي عنهما، وما كانتا تعرفان عنه شيئاً. وما نكر عليهما ذلك، حتى ولم يؤنّبهما على ذلك والدهما وهو النبيّ الكريم المشهود له بالأخلاق والدين؛ فأين المتشدقين باسم الدين الذين يفتون بحرمة سماع صوت الأجنبيّ، أوالأجنبية من سلوكيّة موسى (ع)؟. وأين أولئك

الذين يحرمونَ المرأة من العمل خارج منزلها، وها هما ابنتا النّبي شعيب (ع) يقرّ ربُّهما عملَهما بالرّعي والسقي.

ومن ثمَّ نجدُ في قصّة موسى عليه السّلام والنّبيّ شعيب عليه السّلام عبرة وفائدة نستقيهما من طلب ابنة النّبي شعيب (ع) استئجار موسى (ع)، حيث عرض النّبي شعيب (ع) على موسى (ع) أن ينكحه إحدى ابنتيه مقابل أن يكون أجيراً عنده لثماني حجج [قال إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممتَ فمن عندك] وقبول موسى (ع) لعرضه بقوله: [ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل]. فالزواج تمّ بعرضٍ أو بطلبٍ من المرأة، أو أبيها، وأنّ القبول أتى من قبل موسى (ع) وأنّ المهر كان أجر عمله عنده، وحمايته من العدوان. وفي هذا حجّة على أولئك الذين يرفضون أو يستهجنون خطبة المرأة للرجل في هذه الأيام، وفيه عبرةٌ للنّاس، وفائدة لمن يرغبها ويطلبها. حيث أقرّت القصّة برضى النّبيين شعيب وموسى عليهما السّلام، ورضى ربِّ العالمين بما تقوم به المرأة أو الرجل من لقاء، ومحادثة، ورعي، وسقي، ومخالطة، وطلب يد.. وأنّ المرأة في شرع الله صنو الرجل وهي مشاركة له في أعماله ومهامّه، سواء كانت أمّاً، أو أختاً، أم بنتاً أو زوجة، وفي أيّ رتبة كانت من القرابة، أو غيرها، وفيما له صلة بالعيش والحياة العامّة التي يحتاجها المجتمع البشري... ولا أدري من ناحية أخرى كيف يسمح الرجل لنفسه أن يلوم المرأة على ما يرتكبه في حقّها، وحقّ المجتمع من أخطاء

وفحشاء ومنكر. ولا يوجّه اللّوم لنفسه فيما إذا ارتكبت المرأة في حقّه وحق المجتمع الفحشاء والمنكر... ألم ترَ أنّ يوسف (ع) قد سبّب لامرأة العزيز، ولنسوة المدينة أن سوّلت لهنّ أنفسهنّ ما لا تحمد عقباه، وهذا ما جاء على لسان امرأة العزيز: [الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه... إلى قولها... وما أبرئ نفسي إنّ النّفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفور رحيم].. ألا تجد أيضاً أنّ ابنة شعيب هي التي وقعت أسيرة حبّ موسى (ع) وقوّته، وإن بادلها موسى ذلك بدليل مناجاته لربّه [إنّي لما أنزلتَ إليّ من خير فقير].. ولما نذهبُ بعيداً.. فها هو نبيّ الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلّم عمل تاجراً عند السيّدة خديجة بنت خويلد وما أنْ لمستْ صدقه وأمانته، وعلمتْ خُلُقَه حتّى طلبتْ يده، وعملتْ على التّقرّب منه، وإلى أن تحقّق لها الزواج منه، وكانتْ أمّاً للمؤمنين بحقّ وحقيقة، رعَتْ محمّداً، وساعدته، وواسته في كلِّ مراحل بعثته الّتي عايشته فيها وأمدّته بكلّ ما عندها لنشر رسالته، وما توانتْ، ولا ضعفتْ. وكانتْ مثال المرأة المؤمنة التّقيّة التي لبستْ لباس التقوى إذ خشيتْ الله في تصرّفاتها، وآمنتْ بمحمّد نبيّاً، وبربّ محمّد إلهاً، وتيقّنتْ من مراقبة الله لها ولكلّ عباده. وفاطمة الزهراء (ع) ابنتها وربيبتها التي قامتْ بمهامّها اتجاه نبيّ الرحمة بعدها، فقد دافعتْ عنه، وواجهتْ كيد المشركين، ورأتْ أذاهم، وما كانوا يقومون به من تعذيب المؤمنين والمؤمنات، وصبرتْ مع والدها .. حتّى قال عنها النّبيّ الكريم محمّد

(ص) تقديراً لها وتعظيماً: { فاطمة بضعة منّي فمن أذاها فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله}.

أليس فيما تقدّم ما يؤكّد ما أشرنا إليه من إعطاء الله والرسل للمرأة حقّ أن تختار لنفسها شريك الحياة، ولها أنْ تخطبه، وتحادثه، وتتعرّف على خلُقه ومبدئه، وغير ذلك ممّا يهمّها من صفاتٍ يجب أن تتوفّر فيه لتقبل بعقد قرانها عليه... ومن ثمّ أليس في سلوكيّة فاطمة بنت رسول الله مع أبيها (ص) ومع المؤمنين وغيرهم ممّن كان يقدم إلى منزل محمّد (ص) ليسمع منه دين الله، أو ليسأل حاجته، وفي تعرّضها لأولئك الذين كانوا يتقصّدون أذيّة رسول الله وهو في الصّلاة ساجداً أو قائماً؛ أليس في ذلك سماح للمرأة في هذا العصر سواء كانت بنتاً أو زوجةً أو موظفةً لاستقبال ومحادثة من يأتي إلى بيت أبيها أو زوجها أو مراجعي المعاملات لديها. .؟ وبعد هذا أليس في سلوكيّة السيّدة عائشة، وهي من أمّهات المؤمنين ما يسوّغ للمؤمنين والمؤمنات أن يخرجن مطالبات بما يرونه حقّا كما عملت في خروجها أيّام الخليفة عثمان محرّضةً الرجال ليكونوا معها في مطلبها.. وما قامتْ به أيّام خلافة الإمام علي ووقوفها في وجهه، ومحاربتها له في معركة الجمل في صفّين، وغير ذلك من تصرّفاتٍ لها... ومن ثمّ مجاهدة النّساء المؤمنات اللاّتي قمنَ بمشاركة الرجال المؤمنين في الذّود عن محمّد ودين محمّد (ص) وفي غالبية المعارك والغزوات التي خاضها رسول الله مع المشركين... ! أليس في هذا كلّه ما يجعلكِ أختي المؤمنة على ثقةٍ من أنّ مشاركتك للرجل فيما تقدرين عليه من

أعمال ولا يكلّف الله نَفساً إلاّ وسعها هو أمرٌ مسموحٌ به، لا بل هو واجبٌ عليك القيام به، وأنّك مسؤولة أمام الله فيما إذا قصّرتِ به اتجاه نفسك، وزوجك، وأهلك، والوطن.. وأنّ الإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده ومنذ إبراهيم الخليل عليه السّلام الذي سمّانا بالمسلمين يَضعكِ والرّجل في كفّة ميزان واحدةٍ أمام المسؤولية والواجب اتجاه نفسك، والله، والبشريّة، والوطن. فالبِسي لباس التقوى، وتحصّني بالإيمان، واعملي الصّالحات، وكوني عوناً للرّجل الذي يلبس لباس التقوى ويسعى جاهداً لمعرفة الحقّ، ويعمل لبناء مجتمعٍ تتوافر فيه معالم الحضارة والتقدم، وتترسّخ فيه القيم الإنسانيّة التي ارتضاها ربُّ العزّة، ودعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين، فالإنسان أخو الإنسان حبّ أم كره، وهو إمّا أخ لك في الدّين، أو نظيرٌ لك في الخلق وهذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي (ع) مالك الأشتر عندما ولاَّه مصر. وقد قال تعالى في كتابه الكريم: [يا أيها النّاس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم]. وقال تعالى: [ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها] وقال جلّ شأنه: [هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ]. تمعّني الآيات الكريمة وكوني الإنسان الأتقى، والزوجة السّكن، والبسي لباس التقوى تنالين رضا الله والرسل والمؤمنين. واعلمي أنّ الجنّة والنّار لا يتوقفان على قطعة قماش توضع على الوجه أو بنزعها عنه. وأنّ إباحة تغطية جسم المرأة بالكامل ما كان إلاّ لتجنّب ودفع الأذى الممكن حدوثه أو المتوقّع حدوثه من المشركين وفي مجتمعٍ لا سيادة للقانون ولا

للأخلاق فيه. أو في مجتمع لا قيمة للسمات الإنسانية فيه من محبّة وإخاء وتعاون واحترام وتقدير. وأنّ المتشدّدين في هذه المسألة من المحافظين وغيرهم ما هم إلاّ ضحيّة أولئك الأشرار الذين يريدون أن يقع النّاس من رجال ونساء في شباكهم، وممّن وُضِع على عيونهم الغشاوة فلا يرون ما يمكن أن يَقَع بهم أو يحلّ بنسائهم، وعندها ينفد الأشرار بأفعالهم التي يرتكبونها بحقّ الإنسانية والشرع. إذ أنّ في تغطية كامل أجساد النّساء ما يتيح للأشرار أن يرتكبوا الفحشاء والمنكر مع بعض النّساء ممن ضعف إيمانهنّ، حيث يسهل إقناعهنّ؛ بأنّه يصعب كشف أمرهنّ لسهولة الإدّعاء بأنّهنّ حليلات أو من المحرمات، وأنّه إنْ انكشف لسببٍ أو آخر، فإنّ الكاشف يحتاج وفق الشرع إلى أربعة شهداء، وإلاّ يُتّهم بالفسق وقد يجلد على أنّه ممن تُطبّق بحقّه حكم الآية الكريمة: [والذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون]. نعم قد يجيّر حكم الآية لصالح أولئك الأشرار وخصوصاً إن كانوا في موقع المسؤولية.. وقد حدث ذلك في التاريخ كثيراً، وما قصّة الميل والمكحلة بغريبة ولا هي بغائبة عن ذهن القارئ الكريم.

واعلمي أنّ أولئك المحافظين والمتشدّدين لو يدركون أهمية كشف الرأس أو الوجه في فضح أولئك الذين تسوّل لهم أنفسهم الأمارة بالسّوء ارتكاب الفحشاء والمنكر، وفي الحدّ من توسّع دائرتهما، لسهولة مراقبتهم والإمساك بهم وإدانتهم، ومن ثمّ تقديمهم للعدالة؛ لما توانوا لحظة في العمل على تحقيق

لباس التقوى لهم ولنسائهم، ولساروا في تربية أولادهم مسيرة الأنبياء والمرسلين واتّبعوا سنّتهم في تنشئة الأجيال وتوجيه الإنسانية إلى مكارم الأخلاق وإلى ما يحقّق إنسانية الإنسان المكرّم والمفضّل على باقي الكائنات بعقله.

جريمة كان الحجاب ساتراً لها

رُوِي لي الكثير من الجرائم الأخلاقيّة التي ارتكبها الأشرار مع بعض النّساء المحجبات اللاّتي أريد لهنّ أنْ يبقين حبيسات المنزل والأفكار السّوداء. واطّلعتُ على قضايا إجراميّة تناولها القضاء الجزائي في سوريا ومصر والعراق، ووقفتُ عند الكثير منها وكانت السّبب في تناولي لهذا الموضوع في كتابي هذا إلى جانب ما طالبني به بعض الأخوة والأخوات في بيوت المرتضى في ريف السّاحل السّوري. وأظنّك أيّها القارئ الكريم قد قرأت وسمعت الكثير منها لذلك سأكتفي بحادثة كشف عنها مسؤول أمنيّ معاصر ممن يعملون في إحدى دوائر الأمن الأخلاقي، آخذ منها موضع الشّاهد، "أنّ سائق تكسي شرير ألِف الفحشاء والمنكر تعرّف بواسطة عمله على محجّبة شريرة مثله، واعتاد على فعل المنكر معها، وحيث أنّه كان يدّعي أنّ من ترافقه في سفراته هي حليلته عندما كان يسأل عن ذلك، وعليه استمرّا في عملهما المشين زمناً طويلاً حتّى اتفقا على التكسّب، وكان أن أحضر السائق رجلاً إلى الفعل المشين معها بعد أن زيّن له جمال وفتنة تلك المرأة، وما أن دخل عليها حتى فوجئ بأنّ تلك المرأة هي زوجته، وعندها فقد صوابه وارتكب

جريمة القتل، ولولا ارتكابه الجريمة لما استطاع الأمن كشف ذلك.... ولك في الكتب التي تناولت الجرائم الأخلاقية وفي مختلف المدن والدّول الإسلامية وضوح وبيان لدور الحجاب الكامل للمرأة في تغطية سوء وفحشاء أولئك المجرمين والمجرمات وفي قراءتها ما يعطيك صورة أبلغ وأوضح.

الحقيقة لا مفرَّ منها

الرجل والمرأة صورتان لحقيقة واحدة هي الإنسان، والإنسان مشروع الله الأكبر على وجه الطّبيعة، وهو المستخلف فيها وعليه تقع مسؤوليّة إعمارها والنّظر في قوانينها ومعرفة أسرارها والعمل للوصول إلى ما يحقّقُ إنسانيّته وجدارته بهذا الاستخلاف الذي كرَّمَ الله به ابن آدم على بقيّة الكائنات الموجودة على هذه الأرض. وقد عمل الإنسان ووفق ما توصّل إليه علمه إلى أعمار الحياة الدنيا، وكان للأنبياء والرسل دور مهمٌ في دفع الإنسان للعمل الدؤوب لإنجاز المهمّة والصّبر على ما لاقاه الإنسان ويلاقيه من مصاعب وظروف كانت تدفع به إلى الهاوية والسّقوط في حبائل الشّيطان عدوّه اللّدود. ومن أخطر القضايا التي نفثَ فيها الشّيطان وروّج لها إيقاع الفرقة والخلاف بين الذّكر والأنثى وكم عزف كثيراً وما زال على إيقاعهما ومنذ آدم وحوّاء. وما زال البشر واقعين في مضبِّ الشّيطان وإن استطاع الرسل والأنبياء والصّالحون رجم الشّيطان لفترات طويلة أعطوا فيها الدروس للنّاس للخلاص من بوائق الشّيطان وكان ذلك من خلال الحضّ على العلم

والمعرفة والتزوّد بمكارم الأخلاق والتزيُّنِ بمثلِها والتحلّي بحُليّها وعلى أنَّ الإنسان أخو الإنسان حبَّ أم كره.

وقد حان أنْ يَعرف الإنسان في هذا العصر ذكراً كان أم أنثى حقيقةَ كونهما عماد هذه الحياة الدنيا وقد توافر لهما العلم لأن يعرف كلٌ منهما أعضاء جسم الآخر وبدقّة وتفصيل، وكلّ الأجهزة الّتي منّ الله بها على الإنسان ليحي حياته وبما يليق به كإنسان.. فالكلّ يدرس الجهاز العصبيّ والهضميّ والتناسليّ والتنفسيّ والبوليّ... وغير ذلك لا بل وأعمال كلّ جهاز، وما تتمتّع به الحواسّ من نظرٍ وشمّ وذوق أو سمع ولمس، ويعرف معيّباتها ومُحسِّناتها، وما يفسدها أو يصلحها، وبنسبة لا بأس بها.. بل صار الإنسان في هذا العصر قادراً على أن يزرع مكان أكثر أعضاء جسم الإنسان ممّا قد أفسده الدهر، أو أساءت له الحياة.

فهل يعقل بعد هذا، ومع توفّر وسائل الإعلام العديدة والمنتشرة أن يقف الإنسان ذكراً أو أنثى في دهشة أو استغراب فيما إذا رأى أحدهما وجه الآخر أو شعره أو يده وما أشبه.

ومع هذا فإنّنا نجد أنّ المحافظين من المسلمين وغيرهم في هذه الأيام، وخصوصاً أولئك المتشدقين باسم الدين قد قبلوا بنظر النّساء إلى كثير من أعضاء أجساد الرجال ما عدا العورة وإن اختلفوا على مقدارها أو حجمها وهم بذلك يعطون المرأة وثيقة تقدير وشهادة خُلُقٍ وإيمان حيث يثقون بقدرتها على ردع نفسها، وملك زمامها من أن تقع في الفحشاء جرّاء ذلك.

وهم مع هذا لا يرضون أن تظهر المرأة وجهها أو يديها أو شعرها؛ بحجّة أنّ في ذلك ما يجعله في حالة من الهوس أو الضّعف، لا يقدر معهما على تحمّل النتائج. ومع هذا يحمّل المرأةَ تبعةَ ووزرَ ما يترتّب على ذلك متناسياً حقيقة أنّ المشكلة هي مشكلته وليست مشكلتها. وهو بموقفه هذا يدين نفسه من دون أنْ يدري، ويعترف بقصوره، وعدم قدرته على الالتزام بما طُلِب منه، وأُمِر به أو نُهِي عنه. وبذلك يثبت أنّه ممن أشارت إليهم الآية الكريمة [قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم].

ناهيك عن أنّ أمثال أولئك ممن هم غير قادرين على كبح جماح أنفسهم عند رؤية وجه أو شعر المرأة، أو لمس يدها عند مصافحتها، فيضعون أنفسهم في مصافّ الحيوانات أو بعضها؛ إذ أنّ بعض الحيوانات بغريزته لا يقدم على فعلته كلّما رأى الأنثى، بل يحجم عن ذلك لاعتبارات غريزية حيوانية، أو لحملٍ قد تكون به، أو لعدم قابليتها لذلك، أو لعدم رغبتها في ذلك.. والإنسان قد وهبه الله العقل ليعرف الحلال والحرام وغير ذلك، وهو مطالبٌ بالقيام بما هو حلال له، وبالابتعاد عمّا هو محرّم عليه.. وأنّه إنْ سار مع أهوائه ونفسه الأمّارة، وهو يعلم أنّه في ذلك يخالف الله ورسله، وأنّه يحطّ من قيمته الإنسانية، وينزل بنفسه إلى درجةٍ دون بعض الحيوانات.

إنّ ما لدى الإنسان من غريزة الجنس ما هيَ إلاّ كغيرها من الغرائز الأخرى التي أوجدها الله لحكمة سبحانه هو أدرى بها وأعلم.. وإنْ كانت

استمرارية الحياة، والمحافظة على النّوع في مقدّمة ما نعلمه. والإنسان إنْ كان بحاجة إلى الجنس فهو بحاجة إلى الطعام والشراب وغير ذلك من الحاجيات الضرورية للاستمرار والبقاء. . وهو في كلّ ذلك مأمور في تعاليم السماء ولصالحه بأن يمتنع عن الحرام، وأن يتناول الحلال والطّيبات... أمّا من لا يقدر على منع نفسه عن تناول وفعل المحرمات بحجّة نفسه الأمّارة، وغيرها من الحجج كحاجته إليها، أو لعدم توفرها لديه أو لوجودها عند الآخرين ولا حارس عليها. . فكلّ ذلك مرفوضٌ بشرع الله ومحاسب عليه، قال تعالى: [من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره]. . ويبقى على الإنسان أن يعرف أنّ مجاهدة النفس وملكها وقهرها وإلى أن تلتزم جادّة الصّواب في تصرّفاته اتجاه نفسه وغيره من أفضل الجهاد قال رسول الله (ص): [أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه].

تبريرات ضعيفة لا سند لها

هل يُعقل أن يبرّر الرجل سرقته لمال غيره، أو يُسْكَت عن اغتصابه له بحجّة عدم القدرة على منع نفسه عنه وهو أمامه، أو تحت تصرّف غيره وقد غاب عنه صاحبه أو حارسه، وقد رَغَبَته نفسه، أو يُقبل منه أن يرمي صاحب المال أو حارسه بالتقصير، ويطالبه بإلزامه تحصين رزقه بسورٍ

من حديد لا يُقْدَر على ثقبه، وبوضع حرّاسٍ أشدّاء قادرين على دفع ومنع اللصوص عنه. علماً بأنّه قد يكون عنده المال ومتوفّرٌ لديه.

أبداً لا عدل ولا منطقيّة في ذلك، وخصوصاً إن كان الرجل ممن يدّعي الأخلاق والإسلام والإيمان، ولا أدري كيف يمكن أن نعتبره مسلماً والمسلم في قول نبيّ الإسلام والرّحمة محمد (ص): [المسلم من سلم النّاس من لسانه ويده]. وفي رواية أخرى: من سلم المسلمون من لسانه ويده. وإليك مثالاً يظهر من خلاله ضعف وتهافت حجج أولئك الأشرار غير القادرين على كبح جماح نفوسهم عن ارتكاب الفحشاء والمنكر ومن ثمّ أهمّية حجاب النفس، ولباس التقوى في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

((لدى رجل بستان فيه كلُّ أنواع الفواكه والخضار، وبجواره بستان آخر فيه نفس أنواع الفواكه والخضار الموجودة عنده. . وما أن يمرّ به أو تقع عيناه على منظر الثمار الناضجة فيه حتّى تتلهّف نفسه لدخول البستان، ويسيل ريقه لتذوّق ثماره. . وما أن يغيب عنه صاحبه، أو تخلو له الفرصة لثقب جدار البستان؛ حتّى ينقضّ على الثمار فيجنيها، ويأكل منها ما رغب، ومن ثمّ يأخذ ما يقدر على حمله ليتصرّف به. . وعند سؤاله عمّا اقترفته يداه، وهو يعرف حرمته، ادّعى و برّر فعله بقوله: أنَّ ما قام به كان بسبب عدم استطاعته مقاومة نفسه أمام المنظر الذي رآه، وأنّ غياب صاحب البستان، وضعف الجدار المقام حوله هما السب في ما أقدم عليه. وهو بذلك يريد أن يبرّر فعلته، ويعمل على تحميل صاحب البستان تبعة ما قام به)).

ولدي رغبة في إيراد مثلٍ آخر له علاقة بموضوعنا ومن خلاله يتضح المراد.

((لدى رجل مسلم زوجة، وما أن يرَ زوجةَ غيره حتّى يلهث وراءها، وما أن يغيب عنها الرّقيب حتّى ينقضّ عليها متذرعاً بأنّه لا يقدر على مقاومة نفسه الأمارة، وأنّه ضعف أمام ما زيّن له الشيطان وأغراه به. . حيث كانت سافرة الوجه أو الرأس. وعند سؤاله يتبيّن معرفته بحرمة ما قام به. حيث يعتزُّ بنفسه ورجولته ويحمّل المسؤولية على المرأة ويطالبها بتغطية جسمها متمسّكاً بآية الحجاب، وقد يتنازل فيلعن الشيطان ظنّاً منه أنّه بذلك قد برّر عمله المشين. . متناسياً أو متجاهلاً أوامر الله سبحانه ونواهيه، قال تعالى: [قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خبيرٌ بما يصنعون]. وقوله جلّ شأنه: [ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربّك خيرٌ وأبقى]. وينسى ما عليه من مجاهدة الشيطان، وما عليه من واجب مخالفته ومعاداته التي تصرّح بها آيات الكتاب الكريم، قال تعالى: [اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاع إلى حين] وقوله سبحانه: [إنّ الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السّعير] وقوله: [ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين].

ومن ثمّ أليس على المسلم أن يتبصّر في ما جاء على لسان إبليس عندما توعّد بني آدم بقوله: [لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثُمَّ لآتينهم من بين

أيديهم ومن خلفهم وعن شمائلهم ولا تجدنّ أكثرهم شاكرين]. وفي جواب الله الخالق بقوله: [اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين] وقوله سبحانه: [إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين إنّ جهنّم لموعدهم أجمعين]. فهل بعد هذا بربّك أخي المسلم من عذرٍ يُقبَل لأولئك الذين اتبعوا نفوسهم الأمارة ووقعوا في شرك الشيطان؟. أبداً لا عذر مقبول لأمثال هؤلاء، فهم الذين اختاروا طريق الضّلالة، وابتعدوا عن الصراط المستقيم طريق الهداية الذي هدى الله إليها عباده وسلكها أنبياؤه ورسله وأولياؤه الصّالحون. ولا حجّة لهم بعد ما قام به ربُّ العزّة من تحذير عباده من الشيطان وعداوته. وإنّ ضعفَ ما يلجؤون إليه من تبرير فحشهم ومخالفتهم لله يتجلّى بوضوحٍ في قوله تعالى: [وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون].

ويحضرني موقف لا أنساه حيثُ كنتُ في زيارة لمقام السيّدة زينب (ع) في دمشق وكان لي موعد مع أحد الإخوان للقاء عند الباب الجنوبي للمشهد وقد كنتُ أراقب مشهد الزوّار الدّاخلين والخارجين فشدّ نظري معمّمٌ يصرخ عالياً وهو في سيره نحو جماعة داخلة في رواق المشهد قائلاً: تحجَّبي يامرأة. ونظرت إلى من يوجّه حديثه إليهم فوجدتُ رجلاً وامرأة وفتاة، المرأة محجّبة وفق النّمط المتعارف عليه من دون غطاء الوجه أمّا الفتاة فكانت تلبس البنطلون والقميص وإشار على الرأس وهي واضعة يدها في يد المرأة

إلاّ أنَّ كمّ القميص قد أبان من يدها السّاعد، وكانت جرأتها في مواجهة الموقف أن صاحت في وجه المعمّم قائلةً: غضَّ بصرك أيُّها الرَّجل. وأتممت سيرها. فوجم المعمّم وكأنّه ألقم حجراً.

السّفور والحجاب

وختاماً للحديث، أقول: لستُ داعياً للسفور، كما أنّني لستُ داعية للحجاب بالشّكل الذي يدعو إليه عامّة المسلمين في هذا العصر، ولستُ رافضاً لهما حتّى لا أُفهَم خطأً، وأنّ وجهة النّظر التي أتبنّاها، ومن خلال زاوية نظرٍ شاملة وإنسانيّة، أعتبر أنّ قبول السّفور أو الحجاب مرتبط بما تفرضه الظروف الطبيعيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، ومن خلال أنّ اللّباس مهمّته ووظيفته دفع الأذى والضّرر عن الإنسان الذي يمكن أن تصيبه بسببِ الموقع الذي يشغله في الحياة، فمن يعيش أو يتواجد في جوّ أو مناخ باردٍ لا شكّ أنّ لباسه يختلف عمّن يعيش أو يتواجد في جوّ أو مناخٍ حارٍّ، وكلٌّ منهما يختلف عمّن يعيش أو يتواجد في جوّ أو مناخٍ معتدل. ومن جهة أخرى أنّ من يعيش في بيئة بحريّة سيكون لباسه بالشّكل والنوعيّة مختلفٌ عمّن يعيش في الصّحراء، وأنّ من يكون عمله الزراعة، فحسب نوع العمل يوجد اللباس المناسب والذي سيكون مغايراً عن لباس من يعمل بالجيش على مدفع كان، أو بدبّابة، أو في قاعدة صاروخيّة، أوعلى طائرة حربيّة، إذ أنّه لا بدّ بأنّ كلاً منهم سيحتاج إلى لباس ينسجم والعمل المسند إليه، وأنّه

سيكون مغايراً للباس من يعمل مربّياً للأطفال، أو دكتوراً في مشفى، أو ممرّضاً، أو مستخدما.

وأنّ من يعيش في مجتمعٍ ذي خلق ونظام ودين، سيختلف لباسه عمّن يعيش في مجتمعٍ لا نظام فيه، ولا اعتبار فيه لخلقٍ أو دين. وأنّ من كان يعيش الجاهليّة في فكره وتصرّفه وعقيدته، لن يكون كمن يعيش الحضارة والإيمان في التزامه بالقيم الإنسانيّة وتحقيقها سلوكاً وممارسة.

وبناءً على ما تقدّم فإنّي أؤكد على أنّ كلّ إنسانٍ رجلاً كان أو امرأة عليه أن ينظر إلى بيئته الطّبيعيّة والاجتماعيّة، وإلى أيّ مدى يطبّق فيها النّظام والقانون ويراعى فيها الخلق والدين. ومن ثمّ يختار اللباس الذي يقيه شرور الآخرين وأذاهم وما يلقاه من أذى الطّبيعة بسببِ التبدّلِ المناخي والجغرافي. ورحم الله جمال الدّين الأفغاني حيث ورد عنه في كتاب خاطرات جمال الدّين الأفغاني لعبد العزيز السيّد أنّه قال: وعندي، لا منع من السّفور إذا لم يتّخذ مطيّة للفجور. وقال: ولو اقتصر النّساء على الاكتفاء بالسّفور ولم يتّخذ كما قلنا مطيّة للفجور لَما كان في الأمر ما يحتاج لأخذٍ ورد.[1]

وأنّ من قناعتي أنّ دخول الجنّة لا يتوقّف على قطعة من القماش ساترة للجسد، ولو بأيّ شكلٍ كان أو لون، فالقلب على ما نوى والأعمال بالنيّات وفوق كلّ ذي علمٍ عليم. وأنّه لا علاقة للباس في دخول النّار، وإن كان

---

[1] خاطرات جمال الدّين الأفغاني. ص /10/ اختيار عبد العزيز السيّد. منشورات دار حراء ط: 1969

بأيّ شكلٍ كان أو لون، قصر أو شفّ إلاّ بقدر ما يترتّب على ذلك من نوايا خبيثة وأعمال إجراميّة ترتكب في حقّ النّفس والمجتمع. فدخول النّار يتوقّف على أعمال المرء اتجاه نفسه وغيره من المخلوقات، ونحو ربّه. فبقدر ما تكون أعماله فيما فيه المصلحة الحقيقيّة ويتوخّى صاحبها فيها رضا الله، بقدر ما يكون الإنسان عند الله مقرّباً، وله المنزلة الأرفع والمكانة الأسمى. ومن تكن أعماله مع نفسه وغيره وربّه، مخالفة لأوامر الله سبحانه، وفيها سوء تصرّف لنفسه جسداً وروحاً، ولغيره بشراً كان أم حيواناً أو غير ذلك من خلق الله، وينكر وجود الخالق، أو يشرك به، أو يجحد بأنبيائه ورسله وملائكته وكتبه، فإنّه سيكون في بُعْدٍ عن الله ومحجوب عن رحمته سبحانه، ومصيره جهنّم وبئس المصير.

فلا تنخدعي أختي المؤمنة بما يقوم به الرجل الشّرقيّ أو الغربيّ وكلٌّ حسب ظروفه ومهاراته على تطبيع ما ورد في الكتب السّماويّة بما ينسجم ومصلحته وسيادته وجبروته وقوّته، وأخصّ بذلك أولئك الّذين يعتبرون أنفسهم أنّ لهم وحدهم الحقّ في تفسير ما ورد في تلك الكتب السّماويّة في هذا العصر، وإن اعتمدوا في ذلك على ما يوردونه عمّن سبقهم ممّن أرادوا للمسلمين أن يعيشوا الجاهليّة، ليتمكّنوا من رقاب النّاس ومقدّرات الأمّة. وألزموا النّاس في تقليدهم، ورفضوا كلّ فكرٍ يخالف ما تبنّوه من تعاليم وأحكام وقوانين شرّعوها. إذ أنّ أمثال هؤلاء هم الّذين يحاربون العلم الحضارة والتّقدّم، وعملوا على إبعاد ذلك عن المسلمين الّذين لا تخدعهم

المظاهر من ذوي العقول النّيرة والقلوب الصّافية المؤمنة الذين اعتبروا الدّنيا بما فيها متاع، وبمثابة استراحة مسافر تحت شجرة وارفة الظلال. وثقي بأنّه ما أن تسمح الظروف لأولئك المؤمنين بأن يستلموا زمام الأمور حتّى تصبح الحضارة والتّقدّم والعلم في خدمة الإنسان والبشريّة، وتملأ الدنيا قسطاً وعدلا.

ابن الرّيف

السيّد محمّد عبد الله زهيري